الأسبوع الثامن

حرية الإنسان في نهج البلاغة

قضية الحرية قضية مهمة في حياة الإنسان ، وهناك عدة أسئلة بشأنها ، هل هي أصيلة أم مكتسبة ، هل هي محددة أم مطلقة ، وكيف إذا تعارضت حرية الفرد مع المجتمع ، وهنا لابد من مقدمة .

نقول خلق الإنسان مختلفا عن بقية المخلوقات الأخرى فهو يجتمع معها ببعده المادي ويفترق عنها ببعده الروحي والعقلي .

أما في بعده المادي فإنه يستوي مع بقية المخلوقات في أنه يخضع لنظام قسري وحركة جبرية لا اختيار ولا إرادة له فيها ، وهو ما يطلق عليه ب (البعد التكويني)، فهو لا يختار لونه ولا يختار شكله ، بل لا تدخل له في نظام جسمه الفسيولوجي ، لكن يختلف في بعده الثاني ، فقد خلق وفيه ومضة من روح الله تعالى ، تجعله الافضل والاسمى والأكرم من بين المخلوقات ، قال تعالى : (وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) الحجر / ٢٨-٢٩.

بهذه الومضة الروحية تميز الإنسان عن بقية المخلوقات ، يقول أمير المؤمنين عليه السلام فيما ينسب إليه يخاطب فيه النوع الانساني :

وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

كيف نفهم هذا المعنى في الانسان ؟

لقد خلق الله تعالى الإنسان وكرمه على كثير من مخلوقاته قال تعالى :

(ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) الإسراء/ ٧٠ .

وقال تعالى :(لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم) التين /٤.

وأفاض عليهم من روحه ، ولهذه الروح خصائصها من التفكير والإرادة ومجال التفكير في التعريف المنطقي هي (حركة العقل في المعلومات) .

أما الارادة فإن مجالها بامتلاك الحرية والقدرة على ممارسة الاختيار ، مع هذا نجد أن القرآن الكريم يتحدث عن عبودية جميع الكائنات وخضوعها لأمر الله تعالى ، هذا في البعد التكويني

لكن في مورد آخر يشير الى تخلف كثير من البشر عن الانصياع لله تعالى والإقرار له بالعبودية ، وهذا لا ينحصر بمفصل زمني معين في حياة البشر إنما على نحو الاستمرار قال تعالى :
(إنا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا)الانسان /٣ .

بعد هذه المقدمة نقول كيف ينظر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ومدرسة أهل البيت عموما لحرية الانسان اولا وحدود هذه الحرية ثانيا .
هنا في المقام كلمة مشهورة للإمام أمير المؤمنين عليه السلام وردت في الكتاب ٣١ في نهج البلاغة يقول : (لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرا) .
الامام علي عليه السلام يرى أن الحرية في الانسان أصيلة وليست عارضة ، فهي ليست نحلة أو عطية أو هبة له من إنسان آخر، ذلك أن الله تعالى قد جعل الحرية للإنسان جعلا ، فإذا كان الله تعالى قد خلقك أيها الإنسان وجعلك حرا ، فلماذا تجعل من نفسك مستعبدا لجهة أخرى سواء أكانت هذه الجهة شخصا أو أهواء نفسية ، كما أشار عليه السلام في خطبة له قائلا : (إن الناس عبيد الدنيا) ، فلايسترقنّك الطمع والجشع والأهواء .
هناك مقولة تنسب خطأ للامام علي عليه السلام (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا) وهي لغيره ومن منطوق هذه الكلمة يتضح أن قائلها يرى الحرية في الإنسان عارضة غير أصيلة إنما تكون بالتبع لأمة فإن كانت حرة فهو حر ، وإن كانت مستعبدة فهو مثلها.
ثانيا : هل أن الحرية محدودة ومقيدة أم مطلقة ، وكيف تنسجم حرية الفرد مع حرية الآخرين ، وكيف يكون الحال إذا تعارضت حرية الفرد مع مصلحة الجماعة ؟ .
الواقع أن مفهوم الحرية من أخطر المفاهيم وقد اختلفت آراء المفكرين والفلاسفة فيها بحسب المدارس الفكرية ، فهناك من يراها مطلقة (الغاية تبرر الوسيلة) وهي المقولة الميكافيلية ، وهي توحي بالإطلاق وهناك من يراها مقيدة .
وهنا نقول لا افراط ولا تفريط ، ففي كلا الحالتين يكون المؤدى إلى نتائج سلبية كبرى ، فاعطاء حرية تامة يؤدي الى الإضرار بالآخرين ، أما سلب الحرية ومصادرة حرية الإنسان فهو خلاف ما جاءت به الشريعة والقوانين الوضعية والدساتير المعمول بها .
الإمام عليه السلام هنا يقيد من جهة ويطلق من جهة وهذا منتهى الابداع ، اما جهة التقييد بقوله إن هذه الحرية مجعولة من الله تعالى على وفق ما أمر الله به وما نهى ، لماذا حتى لا تتعارض هذه الحرية مع حرية الآخرين وحقوقهم ولا تتعدى الحدود التي رسمها الشرع الشريف .
ولو تأمل الإنسان ذلك فإنه لا يجد في ذلك تقييدا سالبا لحرية الفرد بل هو الحرية بعينها ، حين يكون الإنسان في دائرة الشرع الشريف ملتزما به ، ليبعده الله تعالى عن الوقوع

في دائرة العبودية لنوازع النفس البشرية الغرائزية والشهوية - وهي عبودية في منظور آخر- ولأجل أن لا تتعارض حريته مع حقوق الجماعة ، ونمثل لذلك بالحديث الذي يسمى بحديث السفينة ، وهو مشهور عن النبي صلى الله عليه وآله يقول فيه : (مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم اسفلها ، وكان الذين في اسفلها اذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن اخذوا على ايديهم نجوا ونجوا جميعا).
اما جهة الاطلاق فهي حقيقه هذا الجعل الالهي الذي صير فيه الانسان قادرا على الاختيار واتخاذ القرار . ومن مظاهر الحرية في تراث الإمام علي عليه السلام :

– حرية الرأي والفكر :

الشريعة الإسلامية تضمن هذا الحق فلا يصح أن تجبر إنسانا ما على اعتناق عقيدة معينة قال تعالى : (لا إكراه في الدين) البقرة /٢٥٦، وقال تعالى : (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) يونس /٩٩ ، وفي هذا يقول أمير المؤمنين عليه السلام : (إن القلب إذا اكره عمي) حكمة / ١٩٣.
إذن لماذا الحرية الفكرية لابد من فضاء واسع ، ذلك من الحرية للإنسان لكي يكون مبدعا خلاقا فذلك فرع الحرية وفي ظل الحكم الإسلامي عاش اليهود والنصارى محتفظين بديانتهم وعقائدهم يروى أن الحريث بن راشد السامي كان مبغضا لأمير المؤمنين عليه السلام فجاء له قائلا والله لا اطعت امرك ولا صليت خلفك فلم يغضب الإمام عليه السلام ولم يبطش به ولم يأمر به الى السجن او بعقوبه وانما دعاه ليناظره حتى يظهر ايهما مع الحق ويبين له وجه الحق لعله يتوب فقال له الحريث اعود لك غدا فقبل منه الامام ذلك فانصرف الرجل الى قومه ولم يعد .

– حرية المعارضة :

لما بايعت الأمة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بالخلافة وهي البيعة الشرعية الوحيدة وتلحق بها بيعة الإمام الحسن عليه السلام امتنع بعض الصحابة عن بيعته كعبد الله ابن عمر وسعد بن ابي وقاص فاقترح بعضهم على الامام عليه السلام ان يجبرهم على البيعه فرفض الإمام عليه السلام اجبارهم ولما قال الإمام لسعد بن أبي وقاص بايع ، قال : لا ابايع حتى يبايع الناس والله ما عليك مني باس ، فقال الامام عليه السلام : خلوا سبيله ،

وقال لابن عمر لما رفض البيعة حتى يبايع الناس ، قال له ائتني بحميل اي كفيل ، قال : لا ارى حميلا فقال الامام لاصحابه دعوه فأنا حميله .
حق المعارضة الايجابية مكفول لكن أما ان تخرج بعنوان المعارضة فتخرق النظم وتقتل وتخرب وتتطاول على القانون وتعبث في مقدرات البلاد والعباد فهو أمر مرفوض وهذه ليست معارضة في حقيقتها .